تمهيد

١ أديان التوحيد الثلاثة

لكل دين من أديان التوحيد الثلاثة كتابه الذى يختص به، وتشكل هذه الوثائق أساس الإيمان عند كل مؤمن يهوديا كان أو مسيحيا أو مسلما. وكل مؤمن يعتبر كتابه تسجيلا ماديا لوحى إلهى، وقد يكون هذا الكتاب منزلا بشكل مباشر كما هو الأمر فيما يتعلق بسيدنا إبراهيم وموسى عليهما السلام؛ لأنهما تلقيا الوصايا مباشرة من الله، وقد يكون الكتاب منزلا بشكل غير مباشر كما هو الحال فيما يختص بالمسيح أو محمد عليهما السلام، فقد أعلن المسيح أنه يتحدث باسم الله، بينما بلغ محمد ﷺ الرسالة التى نقلها إليه جبريل عليه السلام.

ولقد ظهر القرآن الكريم بعد المسيح بستة قرون وتناول مواضيع عديدة بعضها موجود فى التوراة العبرية والأناجيل، ويوصى القرآن كل مسلم بالإيمان بالكتب السماوية السابقة عليه، وهذا المبدأ يلزم الإنسان المسلم ألا ينكر الكتب التى أنزلها الله على الأنبياء السابقين وإلا فإن إيمانه يكون ناقصا كما فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (النساء: ١٣٦)

إن موقف المسلم واضح فهو لا يطالب بأن ديانته خاصة به أو مميزة له، فالإسلام ليس دينا عنصريا، ولكن جميع الأديان — فى نظر الإسلام — دين واحد لأن الحقيقة واحدة. والإسلام دين جميع الأنبياء السابقين؛ لأنهم أعلنوه كحقيقة فى كل الكتب السماوية تتلخص فى إدراك الإدارة والتنظيم الإلهى والخضوع والاستسلام بصدر رحب لتلك الإدارة وذلك التنظيم.

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٨٤ – ٨٥)

وقد أنزل القرآن من عند الله لهدف مزدوج:

١ – تصديق الرسالات السابقة.

٢ – ضبط ما تم من تحريفات من كلام البشر فى الكتب السماوية السابقة.

ولقد أشار القرآن الكريم لهذا الهدف الرئيس كما فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة: ٤٨)

إن التحريف الواردة فى الكتب السماوية السابقة حصيلة لأخطاء كلام البشر، وعلى سبيل المثال اختلف اليهود فى كتابهم (التوراة) وجاء القرآن ليفصل نهائيا فى هذه المتناقضات، ويوضح بالحق ما أنزل على موسى وعيسى، ويشرح أيضا موضوعات: الذات الإلهية والوحى القرآنى واليوم الآخر. ويصف الله سبحانه وتعالى القرآن على أنه المعيار النهائى لجميع الكتب السماوية السابقة كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النمل: ٧٦)

إن التحريفات الناتجة عن أخطاء كلام البشر – أثناء تدوين الكتب السماوية السابقة – ذنب كبير فى حق الله، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٧٨)

ولقد تم حديثا فحص الكتب المقدسة فى ضوء المعارف العلمية الحديثة فى كتاب «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» تأليف الدكتور موريس بوكاى (١٩٧٦) الذى يقول فى مقدمة كتابه[٥]:

إن معالجة الكتب المقدسة من خلال الدراسة النقدية للنصوص شىء حديث العهد فى بلادنا (أوربا). ولقد ظل الناس يقبلون نصوص العهد القديم والعهد الجديد على ما هى عليه طوال

---

(٥) المرجع السابق – ص ٩.

قرون عديدة، ولم يتعرض رجال الدين (القساوسة) أثناء قراءتهم للكتب المقدسة إلا للعبارات المديحية، وكان مجرد التعبير عن أى روح نقدية إزاء الكتاب المقدس خطيئة لا تغتفر، وكان القساوسة يعتبرون أنفسهم الصفوة التى تستطيع بغير عناء أن تكون لديها المعرفة الإجمالية والتفصيلية للتوراة والإنجيل، أما عامة الناس فلم تكن تتلقى إلا نصوصا قليلة مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر المواعظ.

والآن وقد أصبح نقد نصوص التوراة والأناجيل فى أوربا علما، فإن هذا النقد جعلنا نكتشف مشاكل مطروحة وخطيرة فى أحيان كثيرة، غير أننا لابد وأن نصاب بخيبة أمل عندما نقرأ كتبا حديثة تدعى أنها نقدية ولكنها للأسف لا تعطى (فى مواجهة الكثير من مشكلات النصوص الدينية) إلا تفسيرات مديحية تهدف إلى ستر أخطاء مؤلفى هذه النصوص دون مواجهة صريحة، وفى ظل تلك الظروف فإن المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق تظل للأسف باقية فى هذه النصوص بلا حل فى نظر كل إنسان عاقل يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير والإحساس الموضوعى (دون تعصب أو مجاملة).. وإننا لنأسف حقا لذلك الموقف الغريب الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ حتى الآن ببعض المقاطع الباطلة فى نصوص التوراة والإنجيل خلافا لكل منطق، إن هذا الموقف يسيىء كثيرا إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة، ومع ذلك فقد أثبتت التجربة حاليا أنه إذا كان البعض منا قادرا على فضح مواطن الضعف فى تلك النصوص، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف فى الكتب المقدسة، وظلت فى جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف العلمية المشهورة التى تعتبر من المعارف الأساسية».

ولقد استنتج الدكتور بوكاى(*) من خلال دراسته الموضوعية للكتب المقدسة ما يلى:

١ – القرآن الكريم وحى نقى لا يحتوى على أية عبارة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث، وأن صحة القرآن الكريم غير قابلة للجدل وتعطى النص القرآنى مكانة خاصة بين كتب التنزيل الثلاثة. وقد تم تدوينه فور نزوله، وحفظه المؤمنون بكثرة قراءته عند الصلاة، كما جمعت الآيات فى سور بأمر النبى محمد نفسه، وأصبحت هذه السور النص المكتوب الثابت والوحيد للقرآن الكريم منذ نزوله وحتى اليوم.

٢ – التوافق التام بين القرآن والعلم يدحض فرض هؤلاء الذين يرون فى محمد ﷺ مؤلفا للقرآن! كيف يمكن لإنسان أن يصرح بحقائق ذات طابع علمى لم يكن فى مقدور أى بشر فى ذلك العصر أن يؤلفها دون أن يقع فى خطأ علمى خلال تصريحه !.

(*) د. موريس بوكاى – المرجع السابق – ص ٥، ١٠، ١٣، ٢٨٦.

حقا إن محمدا نبى، والقرآن الكريم تعبير صادق للوحى الإلهى، ويجب على البشرية كلها منح القرآن منزلة خاصة وذلك لصدق ونقاء روايته.

٣ – أنه من المؤسف حقا أن نجد الآن كثيرا من الناس فى أوربا يتحدثون عن المسلمين على أنهم (المحمديون) لتأكيد الادعاء الباطل والإشارة المقصودة بأنهم أناس يتبعون دينا قام بتأليفه رجل عادى، وبالتالى فالإسلام فى نظرهم دين عديم القيمة عند الله. ويقول الدكتور بوكاى فى هذا الصدد «كان يمكن أن أظل محتفظا بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام تماما مثل كثيرين فى الغرب لأن هذه الأفكار للأسف على درجة من الانتشار بحيث إننى أندهش الآن حين ألتقى نادرا (وخارج المتخصصين) بشخص يعرف حقيقة الإسلام/ وأعترف إذن بأننى كنت جاهلا قبل أن تعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيتها فى الغرب».

٤ – إذا أخذنا فى اعتبارنا الحقائق الموضوعية لتاريخ الأديان ودون تعديلات البشر للكتب المقدسة، يجب علينا أن نضع التوراة والإنجيل والقرآن، على مستوى واحد من حيث إنها مجموعات للوحى المكتوب لأديان التوحيد الثلاثة، غير أن هذا الموقف الذى يعترف به المسلمون مبدئيا ليس هو نفس الموقف الذى يقبله الناس فى الغرب تحت تأثير الدعايات اليهودية والمسيحية التى ترفض للأسف إعطاء القرآن الكريم صفة الكتاب المنزل! ولا يملك الإنسان سوى أن يأسف لمثل هذا الموقف الذى يحتفظ بأفكار خاطئة وادعاءات باطلة عن الإسلام والنبى محمد والقرآن.

أليس من الواجب أن تتقارب هذه الأديان الثلاثة تجاه هذا الطغيان المادى والإلحاد المعاصر وتؤلف جبهة واحدة متماسكة أمام هذا الخطر الجارف؟

٢ موقف المسيحية من الإسلام

من وجهة النظر التاريخية فإن اليهود والمسيحيين المخلصين المعاصرين لقدوم الإسلام وجدوا فى النبى محمد ﷺ تحقيقا لدياناتهم فى دين واحد هو الإسلام. ولقد أرسل الرسول الكريم بعثات فى السنة السادسة والسابعة من الهجرة إلى جميع البلاد الرئيسية المحيطة بالجزيرة العربية مثل الدولة البيزنطية والإمبراطورية الإيرانية وسوريا والحبشة ومصر وكانت كلها ماعدا إيران دولا مسيحية، وقد حدثت اتصالات أيضا بمناطق داخل الجزيرة العربية مثل اليمامة حيث كانت هناك قبائل مسيحية، وأصبحت جميع هذه البلاد مسلمة ماعدا الحبشة التى ظلت مسيحية رغم أن بها الآن عددًا كبيرًا من المسلمين ورغم علاقاتها الطيبة بالمسلمين فى عصر الرسول. وعلى العموم فإن الحقيقة تؤكد انضمام معظم المسيحيين واليهود الذين عاشوا حول الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى إلى دين الإسلام. هؤلاء قد ذكرهم القرآن الكريم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(العنكبوت: ٤٧)

وبصفة عامة يجب على المسيحيين واليهود الصادقين أن يتحولوا إلى الإسلام، لأن الإسلام تسلسل طبيعى ومنطقى للرسالات السماوية التى نزلت فى العصور السابقة. وهناك من المسيحيين واليهود من لم يقتصر على الترحيب والدخول فى الإسلام بل إنهم أعلنوا بصدق أنهم كانوا دائما مسلمين، ولقد كان آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى مسلمين طبقا لقول الله تعالى فى القرآن الكريم:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (القصص: ٥٢ – ٥٤)

وهناك من المسيحيين أناس يقدرون الإسلام وفضائله ويقدسون القرآن كما فعل أهل الحبشة الذين استقبلوا اللاجئين المسلمين وأكرموهم أثناء فترة الاضطهاد فى مكة عقب ظهور الإسلام وقال المسيحيون المخلصون: حقا إننا مسيحيون نعترف بالإسلام ونعلم أن القرآن حق

وأنكم -معشر المسلمين- مؤمنون، هؤلاء النصارى مسلمون بالقلب ويصفهم القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ (المائدة: ٨٢ - ٨٦)

وعلى الرغم من مثل هذا الموقف العادل والمشرف لبعض المسيحيين القدماء، فإن أحكاما خاطئة قائمة على مفاهيم مزيفة عن الإسلام قد انتشرت بكثرة فى الغرب، لدرجة أنه يصعب على الإنسان اليوم أن يحصل على فكرة سليمة تعبر عن حقيقة الإسلام فى الواقع. لذلك فإذا أردنا اليوم أن نقارن بين الإسلام والمعارف فإنه يبدو لنا ضروريا ولازما أن نقدم فكرة مختصرة فى نهاية هذا الكتاب كملحق عن الإسلام الذى طالما يجهله الكثيرون فى الغرب.

إن الأحكام الخاطئة تماما والتى تصدر حتى الآن فى الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حينا وعن التسفيه المتعمد حينا آخر. وإن أخطر الأباطيل المنتشرة تلك التى تخص الأمور الحقيقية الأساسية للدين الإسلامى، وإذا كنا نستطيع أن نغفر الأخطاء الناتجة عن أفكار غير واضحة، فإننا لا نستطيع مطلقا أن نقبل هذا التقديم للوقائع بشكل مزيف ينافى الحقيقة، أو على سبيل المثال فإن إنكار نبوة سيدنا محمد ﷺ والادعاء بأن القرآن الكريم ليس كتاب وحى من السماء ما هى إلا أقوال تهدف إلى التسفيه المتعمد لمهاجمة الإسلام. وإن نشر أكاذيب من هذا النوع يساهم فى إعطاء صورة مزيفة عن القرآن وعن النبى محمد ﷺ والإسلام.

ومع ذلك فهناك حاليا أسباب تدعو للأمل، لأن الأديان اليوم ليست منطوية على نفسها كما كانت من قبل، وكثير من المتخصصين يبحثون الآن عن التفاهم المتبادل، وإنه لما يبعث على التقدير ما يحدث اليوم على أعلى مستويات المناصب الرسمية فى الكنيسة الكاثوليكية لإرساء

أواصر الصلة مع المسلمين، ويحاول بعض رجال الكنيسة حاليا مكافحة الجهل بالإسلام ويبذلون ما فى وسعهم لتصحيح وجهات النظر غير الصحيحة المنتشرة بين المسيحيين. ولقد أشار الدكتور بوكاى فى كتابه(٥) إلى التغير العظيم الذى حدث فى السنوات الأخيرة حيث ذكر نصوصا من الوثيقة الصادرة عن سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين وعنوانها:

«توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين» وهذه الوثيقة تدل على المواقف العادلة التى ظهرت فى العالم المسيحى تجاه الإسلام. وتوضح الطبعة الثالثة (١٩٧٠) لهذه الوثيقة التعليمات التالية:

١ – يجب على المسيحيين مراجعة مواقفهم إزاء الإسلام والتخلى عن الصورة البالية الموروثة من الماضى والتى شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة (غير المدروسة) وكذلك الاعتراف بالمظالم التى ارتكبها الغرب المسيحى فى حق المسلمين والذى يقع اللوم فيها على التربية المسيحية.

٢ – يجب على المسيحيين أن يحرروا أنفسهم من أكثر أحكامهم جسامة وعليهم أن يطهروا معلوماتهم واتجاهاتهم وأن يتجنبوا الأحكام السابقة التى صدرت دون دراسة منطقية عن الإسلام.

٣ – بالنسبة للمسلمين فإن الله عندهم هو نفسه رب موسى وعيسى وتقول الوثيقة بالنص:

«نرى باطلا أن نتمسك مع بعض الغربيين بأن الله عند المسلمين ليس إله الحقيقة» ولقد أدانت نصوص مجمع أساقفة الفاتيكان الثانى مثل هذا الزعم الباطل حيث ورد فيها ما يلى:

«إن المسلمين الذين يؤمنون بإبراهيم يعبدون معنا إلها واحدا هو الرحيم، ديان البشر فى اليوم الآخر».

ولقد تناولت وثيقة الفاتيكان بعد ذلك بالنقد الأحكام الأخرى الخاطئة الصادرة عن الإسلام وعلى سبيل المثال: الادعاء بفرض الإسلام بالقوة أى جبرية الإسلام ذلك الحكم المسبق واسع الانتشار فى أوربا تدرسه الوثيقة وتستعين على إنكاره بآيات من القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾(البقرة: ٢٥٦)، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: ٧٨)

٤ – الإسلام ليس دين خوف ولكنه دين حب وأخلاق فاضلة.

٥ – ليس هناك تعصب فى الإسلام، وتقول الوثيقة:

---

(٥) د. موريس بوكاى – المرجع السابق – ص (١٣٦ – ١٣٩).

«الواقع أن الإسلام عبر التاريخ لم يكن أكثر تعصبا من المسيحية عندما كانت تكتسب بشكل أو بآخر مفهوما سياسيا» وهنا تستشهد الوثيقة بآيات القرآن التى تبين أن ما يترجمه الغربيون بأسلوب خاطىء بالحرب المقدسة (الجهاد فى سبيل الله بمعنى بذل الجهد لنشر الإسلام والزود عنه من المعتدين عليه طبقا للنص القرآنى) ليس مطلقا ما يعرف بالـ Kherem فى التوراة، لأن جهاد الإسلام لا يسعى إلى الإبادة (كما يدعى البعض) بل يسعى لمد حقوق الله والإنسان إلى مناطق جديدة. ولقد كانت أعمال العنف فى حروب الجهاد فى الماضى تخضع عموما لقوانين الحرب، وفى عصر الحروب الصليبية لم يكن المسلمون هم الذين ارتكبوا المذابح».

٦ – تعالج الوثيقة أيضا الإدعاء القائل بأن الإسلام دين جامد يبقى أتباعه فى عصر متخلف ويجعلهم غير مؤهلين للتكيف مع منجزات العصر الحديث، تماما مثل مواقف مماثلة لوحظت فى بعض البلاد المسيحية أيام اضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء، ولقد أعلنت الوثيقة الرد على هذا الإدعاء قائلة: «إننا على العكس نجد فى الفكر الإسلامى مبادىء لا تمنع مطلقا من تطور المجتمع علميا».

وبهذا تظهر الوثيقة فى بنودها جزءا من الحقيقة، ولقد شملت حوالى ١٥٠ صفحة تدعو كلها إلى استبعاد الصورة البالية المزيفة التى يصور المسيحيون المسلمين عليها. وإنى على يقين من أن دفاع الفاتيكان فى هذه الوثيقة عن الإسلام سيثير دهشة كثيرة من معاصرينا سواء كانوا مسلمين أم يهودا أم مسيحيين، لأن الوثيقة إعلان عادل يتميز بإخلاص وبروح انفتاح يتباينان مع مواقف الماضى المؤلمة. وهذه الوثيقة تعبير حقيقى عن الحب المشار إليه بين المسيحيين والمسلمين فى الآية القرآنية المذكورة سابقا (المائدة: ٨٢ – ٨٦) وتذكرنا الوثيقة أيضا بأن سكرتارية الفاتيكان قد دعت المسيحيين منذ عام ١٩٦٧ إلى تقديم تهانيهم إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر (انتهاء شهر الصوم) الذى يمثل قيمة دينية أصيلة. ولا شك فى أن تاريخ العلاقات بين الديانتين سيسجل روح الانفتاح نحو الإسلام والتى عبر عنها البابا بولس السادس فى تصريحه بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامى والمسيحى اللذين يعبدان إلها واحدا. وجدير بالذكر هنا ظهور مشاعر البابا كرئيس للكنيسة الكاثوليكية إزاء المسلمين، فكثير من المسيحيين الذين عاشوا للأسف فى ظل روح عدائية للإسلام – الأمر الذى رثت له الوثيقة المذكورة – هم مبدئيا أعداء لكل تأمل فى الإسلام ولذلك فإنهم يظلون فى جهل تام لحقيقة الإسلام لأنهم يحتفظون بمفاهيم خاطئة عن الدين الإسلامى.

ويقول الدكتور موريس بوكاى(*) فى كتابه معلقا على إعلان وثيقة الفاتيكان:

(*) د. موريس بوكاى – المرجع السابق – ص (١٣٦ – ١٣٩).

«لقد لحقت تلك البوادر المواتية للتقارب بين الهيئة الباباوية والإسلام لقاءات واجتماعات جعلت تلك البوادر للتقارب أمرا واقعا» ورغم ذلك فإن فئة قليلة جدا من الناس هى التى علمت بهذه الأحداث الهامة فى العالم الغربى رغم توفر وسائل النشر والإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون، كما أن الصحف للأسف لم تكرس مكانة كبيرة للزيارة الرسمية التى قام بها الكردينال بنيودولى رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إلى جلالة المغفور له الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية فى ١٩٧٤/٢/٢٤ حيث سلم الكاردينال للعاهل السعودى رسالة من البابا بولس السادس معبرا عن إيمانه العميق بوحدة العالمين المسيحى والإسلامى اللذين يعبدان إلها واحدا، وعن تقديره لجلالة الملك فيصل، وفى أكتوبر ١٩٧٤ استقبل البابا رسميا بالفتيكان كبار علماء المملكة العربية السعودية وكانت مناسبة لندوة بين مسيحيين ومسلمين حول حقوق الإنسان فى الإسلام. ولقد استقبل غبطة الأسقف الشنجر الوفد السعودى لكاتدرائيته ودعاهم لأداء الصلاة الإسلامية أمام مذبح الكنيسة متوجهين إلى القبلة (مكة المكرمة).

ونظرا لقصور الدعاية الإعلامية فإن قليلا من الناس هم الذين علموا بمثل هذا الموقف المنطقى الجديد من جانب الكنيسة معبرا عنه فى الوثيقة المذكورة واللقاءات الدينية الهامة.

وإننى أتعشم حدوث تقارب أكثر وتقدم مستمر فى العلاقات الإسلامية والمسيحية المتبادلة فى المستقبل، وإذا كان ممثلو العالمين: الإسلامى والمسيحى على أعلى المستويات يتفاهمون الآن بهذه الكيفية من الإخلاص لرب واحد والاحترام المتبادل والحوار المثمر فيما بينهم، فإننى أقدم كتابى هذا ليس فقط للمسلمين وإنما لغير المسلمين أيضا لمساعدتهم (من خلال التقديم العلمى للقرآن) لمعرفة أن محمدًا رسول الله وأن القرآن نزل كوحى إلهى بواسطة جبريل الذى أرسله الله طوال فترة الوحى إلى النبى ﷺ.

٣ عيسى تنبأ بأحمد

يؤكد القرآن الكريم المكانة البارزة التى يحتلها رسل الله فى تاريخ التنزيل مثل نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء خاصة المسيح الذى يحتل مكانة بارزة بينهم. والقرآن مثل الأناجيل يقدم ميلاد المسيح كفعل خارق (يفوق الطبيعة) ويخص بالذكر أيضا مريم ويطلق على السورة رقم ١٩ اسمها أى سورة مريم.

يقول تعالى فى القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾(سورة الصف: ٦)

وتؤكد هذه الآية الكريمة الحقائق التالية:

١ – عيسى هو ابن مريم وليس ابن الله، فهو مجرد رسول، أى رجل يحمل رسالة من الله يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ (سورة النساء: ١٧١)

٢ – عيسى هو رسول الله إلى بنى إسرائيل وبذلك فإن مهمته كانت محدودة، ونحن – معشر المسلمين – نحترم عيسى بنفس احترامنا لكل الأنبياء لأن عيسى كان رسول الله، ولكننا لا نقول: إن رسالة المسيح شاملة عالمية مثل رسالة محمد.

٣ – لقد تنبأ عيسى بأحمد. واسم أحمد أو محمد بمعنى الشخص المحمود هو ترجمة للكلمة اليونانية Parakletos وطبقا للآية القرآنية السابقة (الصف : ٦) فقد أعطى المسيح البشرى بقدوم النبى محمد من بعده، ورغم هذا فإن الكافرين الجهلاء يعتبرون الإسلام دينا غير حقيقى

أو شعوذة أو سحرا! وعلى كل حال وبصرف النظر عن اعتباراتهم فإن الإسلام هو الحقيقة الصامدة فى تاريخ البشرية.

٤ - يقول الله فى القرآن الكريم:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (سورة البقرة: ١٤٦)

وبهذا فإن أهل الكتاب يعرفون محمدا تمام المعرفة، وأنه حقا على طريق إبراهيم، وهو النبى المنتظر وصوله بعد عيسى، ولكن الأنانية حرضت بعضهم على إهمال ما يعرفونه بل وإخفاء الحقيقة!.

ولنسمح لأنفسنا الآن أن نرجع إلى أحاديث المسيح الأخيرة فيما يخص الـ Paraclete كما جاء وصفه فى إنجيل يوحنا يقول الدكتور موريس بوكاى(٥):

«إن انجيل يوحنا يفرد أربعة إصحاحات من رقم ١٤ إلى ١٧ لهذا الحديث الأخير للمسيح الذى يتعلق بمسائل أساسية ذات أهمية بالغة لمستقبل البشرية الذى يصفه عيسى عليه السلام، مهتما بالتوجه فى خطابه إلى تلاميذه وإلى الإنسانية كلها عبر هؤلاء التلاميذ، معطيا إرشاداته وأوامره، ومحددا بشكل نهائى المرشد الذى يتحتم على الإنسانية اتباعه بعد اختفائه.

إن نص انجيل يوحنا - وهذا النص وحده - يسمى بشكل صريح هذا المرشد باسم يونانى Parakletos والذى أصبح Paraciete فى الإنجليزية، وفيما يلى الفقرات الجوهرية من حديث المسيح نقلا عن انجيل يوحنا:

«إذا كنتم تحبوننى فستعملون على اتباع أوامرى وسأصلى لله الذى سيعطيكم Paraclete آخر»

(انجيل يوحنا ١٤، ١٥، ١٦)

ولكن ما معنى كلمة Paraclete؟ إن النص الحالى لانجيل يوحنا يشرح المعنى كما يلى:

«الـ Paraclete (الروح القدس) الذى سيرسله الله باسمى سيبلغكم كل شىء وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلت لكم»

(انجيل يوحنا ١٤، ٢٦)

«وهو نفسه سيشهد بى»

(انجيل يوحنا ١٥، ٢٦)

---

(٥) د. موريس بوكاى - المرجع السابق - ص ١٢٥.

«رحيلي فائدة لكم، لأنني إذا لم أرحل فإن الـ Paraclete لن يأتي إليكم، وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم، وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم».

(انجيل يوحنا : ١٦ ، ٧ – ٨)

«وعندما سيأتي روح الحقيقة. فسيجعلكم تعرفون الحقيقة بكاملها، لأنه لن يتكلم بإرادته، وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتي، وسيمجدني»

(انجيل يوحنا: ١٦ ، ١٣ – ١٤)

٤ صحة القرآن

القرآن رسالة موجهة لكل البشرية وليس لطائفة معينة، ولذلك فالقرآن عالمى لكل مكان وزمان (لجميع العالمين)، كما يخبرنا الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة التكوير: ٢٧)

والقرآن أيضا رسالة سماوية لأنه لا يمكن أن يأتى إلا بوسيلة إلهية، ووحدة القرآن (أى عدم اختلاف مصادره) صفة مميزة له عن باقى الكتب المقدسة الأخرى (كالانجيل والتوراة)، ونذكر هنا النداء الإلهى - نداء خالق البشر بقوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (سورة النساء: ٨٢)

حقا إن القرآن الكريم هو الكتاب المقدس الذى ظل نقيا صحيحا دون تحريف إلى يومنا هذا. لقد نزل بالحق ولم يحدث له أى تزوير أثناء تناقله عبر الأجيال بقوله الله تعالى:

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (سورة الإسراء: ١٠٥)

وبهذا فإن النبى ﷺ كان مبشرا ونذيرا ولم يكن مسئولا عن الرافضين لرسالة الإسلام. ولقد حقق الرسالة وترك القرآن الكريم ميراثا عظيما للبشرية كلها.

والقرآن كتاب الله، وموضوعه توحيد وتسبيح الله الواحد الرحيم الكريم، وتأمل صنع الله الرائع فى الكون، وتوجيه البشرية للطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة.

ولقد نزل وحى القرآن بواسطة الملك جبريل، واستغرق نزوله حوالى عشرين عاما من حياة الرسول وكانت أولى الآيات: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾(سورة العلق: ١ - ٥)

وبعد نزول هذه الآيات. انقطع الوحى لمدة ثلاث سنوات، وعاد ليستمر عشرين عاما حتى وفاة النبى ﷺ فى عام ٦٣٢ ميلادية. ويلاحظ هنا أن الآيات الأولى مدحت القلم كوسيلة للمعرفة البشرية، وهذا يوضح اهتمام النبى ﷺ بحفظ القرآن مكتوبا حيث كان النبى والمؤمنون من حوله يتلونه ويحفظونه، وعكف الكتبة من أصحاب النبى على تدوين الوحى فورا. ويشير القرآن الكريم إلى حقيقة تدوينه بقوله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾
مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾(سورة عبس: ١١ - ١٦)

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾(سورة البروج: ٢١ - ٢٢)

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ
إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾(سورة الواقعة: ٧٧ - ٨٠)

﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾(سورة البينة: ٢-٣)

وهكذا يخبرنا القرآن ضمن آياته بحقيقة تدوينه فى حياة النبى ﷺ، وبهذا يتمتع القرآن منذ البداية بعناصر الحفظ والصدق.

إن صحة القرآن الكريم التى لا تقبل الجدل تعطى هذا النص الإلهى مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن فى هذه الصحة وصدق الرواية لا العهد القديم ولا العهد الجديد.

إن نقاء القرآن منذ نزوله وحتى الآن دليل على العناية الخالدة التى حفظت بها الحقيقة الإلهية فى نص القرآن خلال كل العصور، فلا تحوير أو إضافة أو ابتكار فى كلام الله ولكن الحق الصادق النقى المقدس فى القرآن باق إلى الأبد رغم كيد الكافرين ومحاولاتهم الفاشلة لتخريب القرآن، وبهذا تحقق وعد الله فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(سورة الحجر: ٩)

وقوله سبحانه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (سورة فصلت: ٤٢)

وهكذا فإن الحقيقة الساطعة فى آيات القرآن الكريم محفوظة بالعناية الإلهية ولا يستطيع أحد أن يتحدى هذه العناية سرا أو علانية بأية حال من الأحوال.

إن القرآن هو الكتاب العظيم الخالد الذى أرسله الله لكل البشرية بما فيهم اليهود والنصارى وخاصة بعد التحريف الذى حدث فى كتبهم المقدسة (التوراة والانجيل) ويقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ
جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾(سورة المائدة: ١٥)

والكتاب المبين هنا هو القرآن لأنه واضح وليس عليه خلاف وله صفات النور الذى نميز به الحق من الباطل.

إن البشرية كلها مدعوة لقراءة القرآن والإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ ومدعوة للثقة فى الإسلام، وكم سيكون السرور والإحساس بالدهشة عندما يفتح القرآن عيوننا الروحية لنرى آفاقا جديدة وندرك الإعجاز القرآنى وبذلك تتعمق المعجزة فى نفوسنا رويدا رويدا حتى يغمرنا نور القرآن!

والدراسات القرآنية متعددة لدرجة أن الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يغطى كل جوانبها، فالأبحاث الإسلامية الجديدة تظهر كل يوم. والنشاط فى مجال البحوث القرآنية واجب على كل مسلم، وعندما يكتشف الإنسان (طبقا لقدراته ودراساته فى مجال معين) إعجازا جديدا فى القرآن فإن عليه إبلاغ الآخرين ونشر أبحاثه على الناس، ليشاركوه الاستمتاع بالاتصال المباشر بالقرآن ودراسة هذا الوحى الخالد.

عزيزى القارئ:

نظرا لكثرة الإساءة والهجوم على الإسلام بواسطة المعادين للدين الإسلامى الذين يشوهون الحقائق، فقد قمت بهذا التقديم العلمى للقرآن على أمل أن تثق أيها القارئ وتؤمن بهذا الكتاب المقدس للإسلام، كما حاولت تفسير بعض الآيات القرآنية التى تتناول حقائق علمية حديثة، وذلك على قدر استطاعتى، وسنرى معا كيف أن المعنى العام لهذه الآيات القرآنية قد توسع مع ازدياد مقدرتنا على الفهم، تماما كالصاعد إلى سفح جبل كلما تقدم إلى أعلى زاد مدى رؤيته للأشياء. وسوف ندرك فى النهاية أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لأنه يتفق دائما مع الجديد فى العلم، وهذا الاتفاق يمثل البرهان المقنع بصحة القرآن والتحدى لهؤلاء الكفار (الذين يحاولون تشويه الإسلام فى نظر غير المسلمين) والاستنتاج المنطقى الذى يؤكد أن القرآن ليس من كتابة البشر لأن سيدنا محمد ﷺ كان رجلا أميا عاش فى عصر الجهل التام بالمعارف العلمية.

إن الآيات العلمية القرآنية تبين أن الإسلام رسالة عالمية، وبذلك فإننا جميعا مطالبون بأمر الله أن نعتنق الإسلام، ونصغى لدعوة سيدنا محمد ﷺ التى جاءت بالنور والهداية لجميع البشر حيث يقول الله تعالى فى القرآن:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾(سورة الأعراف: ١٥٨)

٥ الاتجاه العلمى الإسلامى

لم تكن العلاقات بين الأديان والعلوم متماثلة فى كل الأماكن وعبر مختلف الأزمنة، والأمر الذى لا جدال فيه هو أنه ليس هناك إدانة أو تحقير للعلم فى أى كتاب مقدس. ولكن المعروف أن العلماء قد واجهوا مصاعب كثيرة من السلطات الدينية فى أوربا حيث بادرت سلطات مسئولة فى الكنيسة بمعارضة تطور العلوم فى البلاد المسيحية لقرون عديدة دون الاعتماد على نص مقدس يدين العلم، واتخذت هذه السلطات إجراءات غاشمة ضد العلماء الذين حاولوا تطوير العلم مما دفع كثيرا من العلماء إلى الهرب إلى المنفى تحاشيا للموت، أو إلى طلب الغفران والتماس العفو من كبار رجال الكنيسة! ونذكر فى هذا الشأن قضية العالم جاليليو (١٦١٥) الذى حاكمته الكنيسة لأنه استأنف مكتشفات كوبر - نيكس الخاصة بدوران الأرض، ولقد أدين جاليليو بسبب تفسير خاطئ للتوراة على الرغم من عدم وجود نص مقدس صحيح لإدانته.

ولقد كانت البلاد المسيحية فى تلك الفترة من القرون الوسطى فى ركود تام وتزمت مطلق حيث توقف البحث العلمى ليس بسبب التوراة أو الإنجيل وإنما (وعلينا أن نكرر ذلك)، بأيدى هؤلاء الذين كانوا يدعون أنهم فى خدمة الكنيسة.

وبعد عصر النهضة فى أوربا، بدأ رد الفعل الطبيعى ليأخذ العلماء بثأرهم من منافس الأمس (الدين).. وهذا الثأر مستمر للأسف حتى اليوم، لدرجة أن التحدث حاليا فى الغرب عن الله فى الأوساط العلمية يعتبر دليلا على الرغبة فى التسلط، ولهذا الموقف المضاد تأثير سيئ على العقول الشابة، ومن المؤسف حقا أن نقول إن هذه الصورة المضادة للدين سائدة فى المجتمع المادى المنتشر الآن فى الغرب.

أما فى الإسلام فإن الموقف إزاء العلم مختلف تماما، إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشريف للنبى ﷺ الذى يقول «أطلب العلم ولو فى الصين»، أو ذلك الحديث الآخر الذى يقول «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

وسنرى فى الأبواب القادمة من هذا الكتاب قضية أخرى حاسمة تؤكد أنه بالإضافة إلى دعوة القرآن إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوى على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق تماما مع معطيات العلم الحديث.

فالقرآن الكريم يشجع الاتجاه العلمى كما هو موضح بالآيات التالية:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة يونس: ١٠١)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(سورة فاطر: ٢٧ – ٢٨)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾(سورة آل عمران: ١٩٠)

ويشير القرآن الكريم إلى الآيات الكونية التى سيتم اكتشافها فى المستقبل بقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(سورة فصلت: ٥٣)

ويحث القرآن على تكريم العلماء بقوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٩)

حقا إن الله يعطى درجة عالية وتكريما لهؤلاء الذين يملكون المعرفة كما فى قوله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(سورة المجادلة: ١١)

وبهذا فإن القرآن يدعونا دائما إلى الاشتغال بالعلم والمعرفة، كما أن الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ يعتبر العلم فريضة على كل المسلمين والمسلمات.

ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد بأنه لم تكن هناك عقبات. فهناك أحيانا مسلمون لا يدركون حقيقة الإسلام اتخذوا موقفا آخر إزاء العلم، كما أسىء فى بعض العصور فهم واجب التعلم وتعليم الآخرين، وحاول البعض إيقاف التطور العلمى! ومن المؤكد أن الركود العلمى الحالى للدول الإسلامية يرجع إلى الاحتلال الأجنبى لبلاد المسلمين وليس مطلقا بسبب الإسلام. وعلينا أن نذكر هنا عظمة العالم الإسلامى فى الماضى فى الفترة ما بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر الميلادى. فعلى الرغم من فرض القيود على التطور العلمى فى العالم المسيحى فى ذلك الوقت فإن الجامعات الإسلامية أنجزت كمية ضخمة من الأبحاث والاكتشافات. وعلى سبيل المثال فإن مكتبة الخليفة فى قرطبة كانت تحتوى على أربعمائة ألف مجلد، وكان الكثيرون من مختلف بلاد أوربا يسافرون للدراسة بقرطبة مثلما يحدث فى عصرنا أن نسافر مثلا إلى أمريكا

لتحسين وتكميل بعض الدراسات. وكم هى كثيرة تلك المخطوطات العربية القديمة التى وصلت إلى أوربا بعد الفتوحات العربية، ولهذا فإن أوربا مدينة حقا للثقافة العربية فى الرياضيات والفلك والفيزياء والجيولوجيا والنبات والطب.

لقد اتخذ العلم لأول مرة الصفة الدولية فى العصور الوسطى حينما قامت الجامعات الإسلامية بنشر العلم. وفى ذلك العصر كان الناس فى البلاد الإسلامية أكثر تمسكا بدينهم ولم يمنعهم إسلامهم من أن يكونوا علماء بارزين، فالعلم فى الإسلام هو توأم للدين، وبذلك نستنتج أن الإسلام لا يعارض العلم وأن مرحلة الركود العلمى الحالى فى البلاد الإسلامية ترجع إلى عوامل خارجية. وللأسف فإن أوربا تجهل هذه الحقائق، فإذا حدثت أى شخص مادى ملحد عن الإسلام فإنه يبتسم بغرور يدل على جهله بالموضوع، فهو يمتلك كمية هائلة من الأفكار الخاطئة عن الإسلام والمنتشرة حتى بين المثقفين الغربيين (مهما كانت معتقداتهم الدينية) نتيجة للعوامل التالية:

أولا: باستثناء بعض المواقف العادلة التى اتخذتها حديثا سلطات الكنيسة الكاثولوكية نحو الإسلام (والمشار إليها فى البند الثالث من هذه المقدمة)، فإن الغرب منذ عهد طويل وحتى الآن يتعمد التشهير بالإسلام ويقول الدكتور موريس بوكاى(*).

«إن أى غربى قد امتلك معرفة عميقة وصحيحة عن الإسلام يعرف إلى أى مدى شوه تاريخ الإسلام وعقيدته وأهدافه».

ثانيا: إن الوثائق المنشورة باللغات الغربية فى موضوع الإسلام لا تسهل للأسف مهمة البحث الموضوعى لمن يريد التعرف على الإسلام.

الواقع أن معرفة الوحى الذى نزل على النبى محمد ﷺ أمر أساسى وحيوى، بل إن هذه المعرفة واجبة على كل البشر وليس على الباحثين فقط، ولكن لسوء الحظ فإن الترجمات القديمة للقرآن كما يقول الدكتور بوكاى تحاول أن تعطى لأوربا انطباعا سيئا عن الإسلام، وعلاوة على ذلك فإن بعض الآيات العلمية فى القرآن قد ترجم مع الأسف ترجمة سيئة أو علق عليه بأسلوب يجعل العلماء فى أوربا يوجهون انتقادات لا يستحقها القرآن مطلقا.

وهذه الأخطاء الراجعة إلى الترجمة أو إلى التعليقات المشوهة (وكثيرا ما يجتمع الاثنان) لم تكن تثير الدهشة فى الماضى ولكنها اليوم تصدم رجل العلم لأنه عندما يواجه ترجمة سيئة أو تعليقا خاطئا غير مقبول علميا فإنه سوف يصرف النظر عن آيات القرآن لأنه لن يدرك

(*) د. موريس بوكاى – المرجع السابق – ص (١٤٢ – ١٤٣).

الإعجاز العلمي وقد نسأل عن أسباب أخطاء الترجمة أو التعليق؟ والجواب أن المترجمين ينقلون في أحيان كثيرة – دون روح نقدية كافية– تعليقات المفسرين القدماء. ولقد كان لهؤلاء المفسرين في الماضي عذر إعطاء تعريف غير دقيق علميا لكلمة متعددة المعاني وذلك لأنهم لم يكن في استطاعتهم إدراك المعنى الفعلي للكلمة أو الجملة، فهناك من المعاني في الآيات العلمية في القرآن ما لم يظهر إلا في أيامنا فقط بفضل معارفنا العلمية الحديثة. ويجب علينا الآن مراجعة الترجمات والتعليقات، وخاصة بالنسبة للآيات العلمية القرآنية، حيث إننا نملك حاليا المعطيات العلمية الحديثة الصحيحة التي نستطيع بواسطتها أن نتعرف على المعنى الحقيقي لهذه الآيات:

ويقول الدكتور بوكاى(*)

«لقد أثارت هذه الجوانب العلمية في القرآن دهشتي العميقة في البداية. فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الآيات الخاصة بموضوعات متنوعة ومطابقة تماما للمعارف الحديثة في نص القرآن الموجود منذ أكثر من أربعة عشر قرنا.

وفي البداية لم يكن لي إيمان بالإسلام. وقد تناولت دراسة هذه النصوص القرآنية بروح متحررة من كل حكم مسبق، وأدركت بنفسي المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي اختلقها الغرب، ولقد شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها لكي أكون قادرا على دراسة الدين الإسلامي الذي يجهله الكثيرون في الغرب، وكان هدفي الأول قراءة القرآن ودراسة نصه آية آية مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية. وتناولت القرآن كله منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية الواضحة في النص الأصلي العربي للقرآن، ومطابقة هذا النص (غير المترجم) للمفاهيم العلمية التي نملكها اليوم عن نفس الظواهر الكونية التي لم يكن ممكنا لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يعرفها أو يمتلك عنها أدنى فكرة.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة فإنني لم أكتشف في القرآن أي خطأ. وقد دفعني ذلك إلى أن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسانا عاديا فكيف استطاع في القرن السابع الميلادي أن يكتب عبارات تتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟. ليس هناك مجال للشك فالنص القرآني الذي نملكه اليوم هو فعلا النص الأصلي في عصر محمد: وليس هناك سبب

(*) د. موريس بوكاى – المرجع السابق – ص ١٤٤.

خاص يدعو إلى الاعتقاد بأن أحد سكان الجزيرة العربية استطاع (في العصر الذى كانت فرنسا تخضع فيه للملك داجوبير) أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات: ومن الثابت فعلا أنه فى فترة نزول القرآن، أى تلك التى تمتد على مدى عشرين عاما تقريبا قبل وبعد الهجرة (٦٢٢م)، كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود تام. وأما عصر الحضارة الإسلامية الازدهار العلمى المصاحب فقد كان بالتأكيد لاحقا لنهاية تنزيل القرآن، وأنه من الجهل التام بالأمور التاريخية الأساسية أن نسمح لأنفسنا بقبول الرأى الغريب الذى سمعت البعض يدعونه فى أوربا قائلين: إنه إذا كان فى القرآن دعاوى علمية مثيرة للدهشة فسبب ذلك هو تقدم علماء العرب وأن محمدا ﷺ قد استلهم دراساتهم! ولكن هذه مغالطة واضحة! لأن من يعرف ولو يسيرا من تاريخ الإسلام، ويعلم أن عصر التقدم الإسلامى كان فى القرون الوسطى أى بعد عصر القرآن بمئات السنين، فلن يسمح لنفسه بمثل هذا الإدعاء الباطل، وخاصة وأن معظم الأمور العلمية فى الوحى القرآنى لم تتلق التأييد إلا فى العصر الحديث».

هذه حقا شهادة عادلة بناء على دراسة موضوعية قام بها الدكتور الجراح الفرنسى موريس بوكاى. إنها شهادة حقيقية أعلنها عالم فرنسى (مسيحى) اهتم بدراسة مدى صحة الكتب المقدسة، واندهش بالفعل لوجود آيات علمية فى القرآن ينطبق معناها تماما مع العلم الحديث، بينما اكتشف فى حالة الأناجيل والتوراة تعارضا مع العلم!.

والآن فإننى أدعوك عزيزى القارئ للتعرف على بعض المعجزات العلمية للقرآن والتى تغطى آيات علمية كثيرة، وتشير إلى ظواهر مثيرة، وإننى على يقين أنك بإيمانك سوف تثق حتما فى القرآن على أنه الوحى المنزل على سيدنا محمد ﷺ بواسطة الملاك جبريل وصدق الله العظيم بقوله:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (سورة فصلت: ٥٣)

ويحتوى القرآن على أكثر من سبعمائة آية لها ارتباط بالعلوم بصفة عامة، ومع ذلك فليس القرآن كتابا يهدف إلى عرض القوانين التى تتحكم فى الكون، لأن هناك للقرآن هدفا دينيا أساسيا، وأوصاف القدرة الإلهية تعتبر من الموضوعات الرئيسية فى القرآن لتوجيه الدعوات للبشر ليتأملوا أعمال الخالق، وتصاحب هذه الدعوات إشارات إلى أمور كثيرة يمكن للملاحظة الإنسانية العادية إدراكها أو إلى قوانين إلهية لتنظيم الكون سواء كانت فى الطبيعة أم خلق الإنسان، ويمكن لنا أن نفهم بسهولة بعض هذه الآيات العلمية فى القرآن، والبعض الآخر لا يمكن إدراكه بعمق إلا إذا كان المرء محيطا بمعارف علمية لازمة للفهم الحقيقى. وذلك يعنى أن إنسان القرون السالفة لم يكن باستطاعته إلا أن يتبين فى هذه الآيات المعنى الظاهرى الذى

قاده أحيانا إلى استنتاج تفسيرات غير دقيقة بسبب عدم كفاية معرفته العلمية فى الماضى، وبهذا فإن عدم الدقة فى الترجمة والتعليقات الخاطئة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار حتى يتم تصحيحها فى المستقبل بالنسبة لترجمات الآيات العلمية فى القرآن، وخاصة وأن كل المترجمين المحدثين يستعملون فى أحيان كثيرة ودون روح نقدية كافة تفسيرات المعلقين القدماء!

وهناك الآن من يحتاطون لتفسيراتهم الجديدة برأى العلماء المتخصصين فى الآيات العلمية كما هو الحال فى تفسير المنتخب وهو التفسير العربى الذى طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة (١٩٦٨م)، وهذا الموقف الجديد يجب تطبيقه فى كل ترجمات القرآن فى المستقبل.

إن الأفكار الواردة فى هذا الكتاب مستنبطة من أحدث المعلومات العلمية، وقد تساعد المفسرين فى المستقبل ليقدموا الترجمة الصحيحة للآيات العلمية، كما ستقود هذه الدراسة إلى الاستنتاج بعدم معقولية أن إنسانا عاديا قد استطاع فى القرن السابع الميلادى أن يصدر عبر القرآن فيما يتعلق بموضوعات متعددة أفكارا لا تنتمى أبدا إلى آراء عصره، بينما تتفق هذه الأفكار مع ما أمكن إثباته بعد ذلك بقرون عديدة.

وبهذا فإن محمدا - ﷺ - هو حقا رسول الله المرسل بمعجزة القرآن إلى جميع عوالم الأرض. إنه نبى الرسالة الخالدة النهائية، أى نبى الإسلام!